(الفصل العشرون)
"وانتصر الحب"

عاد الشيخ حامد إلى سكن ناردين ونور الدين، ثم نادى عليهما من الخارج بصوت تملؤه السعادة والانتصار قائلًا:

- **يا أولاد، آتوني مسرعين، أريد أن أبشركما بالخبر السعيد.**

فخرجا على الفور من غرفتيهما؛ ليستقبلا الشيخ بحماس وشوق ملبيين :

- **مرحبًا يا أبي، خيرًا؟**

فأجابهما الشيخ فرحًا:

- **خيرًا، وخيرًا كثيرًا.**

ثم أخرج الشيك من جيبه، وأعطاه لناردين قائلًا:

- **هذا صك نجاتك يا ابنتي؛ فهذه الورقة هي التى ستوقف ذلك المعتوه عن ملاحقتك، فبالتأكيد لن يفضل السجن هذا من ناحية، كما أن التهديد بالقتل، وما تعرض له وشاهدته عيناه يرعبه من ناحية أخرى، لذلك اطمئني يا بنيتي؛ فلم يعد هناك ما يخيفك أو يزعجك بعد الآن.**

ثم ابتسم قائلًا:

- والآن أريد أن أرى فرحتكما، أريد الرقص في عرسكما، أريد أن يكون عندي حفداء صغار.

فابتسمت ناردين، ثم صمتت خجلى، في حين أن نور الدين هب معانقًا الشيخ حامد قائلًا:

- شكرًا لك يا أبي، شكرًا لأنك أهديتنا السعادة والراحة، شكرًا لمساندتك لنا ودعمك، والأهم من ذلك، شكرًا لقلبك الحنون الذي احتوانا في غربتنا، لقد كنت أنت لنا الأهل، والأصدقاء، وكل شيء.

فرد الشيخ حامد ودموع الفرحة تنساب من عينيه قائلًا:

- بل الشكر لكما على هذه السعادة التي قدمتماها لي على مدار عام شعرت فيه بأني قد عشت حياتي التي تركتني وغادرت منذ ما يقرب الثلاثين عامًا. شعرت بأبوتي التي سجنتها بداخلي طوال عمري الماضي، شعرت بأنكما أبنائي؛ فلقد ملأتما عليَّ حياتي البائسة؛ فأصبحت سعيدة ذات معنى جميل بوجودكما فيهاوالآن، دعكما من هذا الحديث فيجب عليكما فورًا تحديد موعد عرسكما، هذا هو مطلبي الوحيد ومكافأتي التي أنتظرها منكما.

فابتسم نور الدين ثم عقب مازحًا:

- أما عني، فأنا أتمنى ذلك يا أبي العزيز، وأنتظر على أحر من الجمر، ولكن لنأخذ رأي العروس أولًا؛ ربما يكون لديها مانع.

ثم ضحك، وضحك الشيخ، لكن ناردين ظلت صامتة وقد كسى الخجل وجهها فزاده توردًا وحمرة، ففهم الشيخ بأنها هي الأخرى تريد الزواج من نور الدين فرد قائلًا:

- الرأي رأيي أنا، فأنا والدها وأبارك زواجكما، لنحدد موعد الزفاف.

وابتسم الجميع فى سعادة وفرح. حدد كلٌ من نور الدين وناردين والشيخ حامد موعد الزفاف بعد شهر من هذا اليوم؛ حتى يستطيع نور الدين أن يخبر أهله ويحضرهم، ثم يذهب إلى والد ناردين الحقيقى؛ ليطلبها منه كما هو معتاد، وكما تنص عليه العادات والتقاليد، اتفقا على أن يذهب نور الدين وأهله يوم الخميس القادم إلى والدها فى الإسكندرية، ومر يوم واثنان، وفي صباح اليوم الثالث، قبل ذهاب نور الدين إلى طلب ناردين بيومين فوجئت وهي بمزرعتها بالشرطة فلما رأى نور الدين سيارة الشرطة أسرع ليستعلم عن ماذا تريد الشرطة من ناردين؛ فسأل الضابط في انزعاج قائلًا:

- **خيرًا يا فندم، ماذا حدث؟**
- **لدينا عدة أسئلة نريد أن نطرحها على المهندسة ناردين.**

فانزعج نور الدين، بينما ناردين "شعرت بالخوف ثم عقبت متسائلة:

- **بشأن ماذا يا فندم؟**

فأجابها الضابط في حزم قائلًا:

- **بشمهندسة ناردين، أنتِ طبعًا تعرفين المدعو جلال المنشاوى، أليس كذلك؟**

فأجابته في توتر بدا جليًا:

- **نعم، أعرفه فهو كان زوجي، لكني تطلقت منه منذ عام تقريبًا، خيرًا يا فندم ماذا حدث؟**

فأجابها الضابط بصوت صارم تملؤه الشكوك قائلًا:

- لقد مات جلال، هل أنتِ على علم بهذا؟

صدمت ناردين؛ فالتفتت إلى نور الدين في ذهول، وجدته هوالآخر قد تجمد مكانه مصدومًا مما سمعته أذناه، فلقد دار برأسيهما في تلك اللحظة أن الشيخ حامد هو الذي ستتجه إليه أصابع الاتهام؛ فهل قتله بالفعل؟ هل ورط نفسه في هذه المصيبة؛ حتى ينعمان هما بحياة سعيدة وهادئة؟ هذا ما دار بعقليهما في لحظتها، ثم استجمع نور الدين نفسه قائلًا:

- **كيف مات يا فندم؟**

- **لقد وصلنا بلاغ من أحد البدو في طريق الإسكندرية مطروح الصحراوى، أنه أثناء تجوله لرعاية أغنامه كالمعتاد فوجئ بجثة لرجل ملقاة أسفل الجبل،**

والدماء تغطى ملامحه بالكامل؛ فأسرعنا إلى مكان الحادثة، وبعد البحث والمعاينة، خرجت من جثة القتيل بطاقته الشخصية وبعض متعلقاته، التي من خلالها استطعنا التوصل إلى شخصية القتيل؛ فقمنا بإعلام أهله وحضر والده وقد تعرف الجثة. التقرير المبدئى للمعاينة يقول بأن الجثة مر عليها ثلاثة أيام، ولكن تقرير الطبيب الشرعى لم يأتِنا بعد. بعد التحريات المكثفة، توصلنا إلى أنه قد كان زوجًا للمهندسة ناردين منذ عام، وعليه أتينا لجمع المعلومات وسؤالها، والآن أخبريني من فضلك متى آخر مرة شاهدتي فيها القتيل؟

تمالكت ناردين نفسها فلقد تذكرت قول الشيخ لها بأنها يجب أن تنفي تمامًا رؤيتها له أو محادثته، فردت في ثبات حاولت إظهاره مجيبة:

- **آخر مرة شاهدته فيها يوم طلاقنا ومنذ ذلك الحين كلٌ منا في طريقه، كما أنه لا أحد يعلم بأنني هنا؛ فلقد أخفيت عن الجميع بما فيهم طليقي مكان وجودي. الكل يعلم أنني بالخارج...**

فقاطعها الضابط متسائلًا:

- **ولمَ أخفيتي وجودك عن الجميع؟**

فأجابته قائلةً:

- **لقد كانت أعصابي منهارة، كنت أمر بفترة صعبة في حياتي؛ فأردت الابتعاد بقدر الإمكان.**

نظر إليها الضابط بنظرات شك ثم قال:

- **حسنًا، هل تستطيعين أن تخبريننى بمكان وجودك يوم السبت الماضي؟**

قاطعه نور الدين متسرعًا:

- **كانت معي هنا؟**

نظر إليه الضابط في تأفف وبحزم قال:

- **عفوًا، أنا أسالها هي، وهي التي سوف تجيب، من فضلك الزم الصمت إلى حين توجيهي الأسئلة إليك.**

فاعتذر نور الدين قائلًا:

- **عفوًا.**

ثم تابع الضابط وبنبرة صارمة قائلًا:

- **هيا أخبريني يا بشمهندسة، أين كنت يوم السبت الماضي؟**

فأجابته ناردين في ثقة كاملة:

- **لقد كنت هنا طوال اليوم في المزرعة، يمكنك سؤال العمال هنا، ثم عدت بعد العصر إلى السكن بصحبة نور الدين.**

فنظر إليها الضابط وقد بدى عليه أنه صدق واقتنع بحديثها، ثم علق قائلًا:

- حسنًا يا بشمهندسة، من المحتمل أن أطلبك لتقديم إفادتك مرة أخرى؛ لذا لا يجب عليك مغادرة هذا المكان لحين إشعار آخر.

- حسنًا، تحت أمرك يا فندم، في أى وقت تريد ستجدني هنا.

فشكرها ثم غادر، انفجرت ناردين في البكاء قائلة:

- هل سمعت يا نور الدين؟ هل يعقل أن يكون الشيخ حامد...؟

صمتت ثم تابعت وهي تبكي بانهيار شديد:

- لا، لا، لا أصدق، لا يمكن أبدًا.

نظر إليها نور الدين في ذهول أصابه هو الآخر ثم تمتم قائلًا:

- أى كارثة وضعت بها نفسك يا أبي؟ ما كان عليك فعل هذا بنفسك لأجلنا؟

قاطعته "ناردين" بصوت باكٍ حزين:

- لا، لايمكن، اتصل عليه يا نور الدين لنسأله عما حدث، هيا أسرع.

اتصل فأجابه الشيخ قائلًا:

- كيف حالك يا بني؟

فأجابه نور الدين بصوت مرتجف متقطع قائلًا:

- لماذا فعلت هذا يا أبي؟ لماذا فعلت هذا بنفسك وبنا؟

فأجابه الشيخ متسائلًا فى تعجب:

- ما الذي فعلته يا بني؟ أنا لا أفهم شيئًا.

فأجابه وقد أخفض صوته هامسًا:

- لماذا قتلته؟ لم يكن هذا ضمن اتفاقنا، أعلم أنك فعلت هذا من أجل حمايتنا، ولكن لماذا؟ نحن لم نكن نريد هذا.

فصمت الشيخ قليلًا ثم قال:

- قتلته! أنت مخطئ يا ولدي، فأنا لم أقتله، على العكس تمامًا لقد تركته يمضي إلى حال سبيله دون أن تُمَس منه شعرة؛ فكيف قتل إذن؟ عجبًا لا علم لي.

ثم قص على نور الدين كيف أن رجاله تركوا رجال جلال، وتركوه وغادروا، فشعر نور الدين بالارتياح، تنفس بعمق ثم رد في سعادة قائلًا:

- الشكر لله، الشكر لله.

فتعجب الشيخ متسائلًا:

- ولكن، كيف قتل هذا المعتوه؟

فأخبره نور الدين بما أخبره به الضابط، ثم قال:

- حسنًا يا أبي، سوف أخبرك بالتطورات فيما بعد.

وأغلق الهاتف مطمئنًا ناردين فتعجبا الاثنان، كيف قتل إذن؟ ومن الذى قتله؟ فعقب نور الدين:

- على أي حال، فإن تقرير الطبيب الشرعى سوف يوضح كل شيء بكل تأكيد، المهم أننا لا دخل لنا بما حدث.

فردت ناردين ولقد تتنفست الصعداء قائلةً:

- هل تعلم يا نور الدين؟ لقد استراح قلبي الآن بموته، رغم ما فعله الشيخ حامد إلا أنني كنت خائفة مادام هو على قيد الحياة؛ كنت سأظل خائفة حتى وإن لم أبدِ لكما هذا، لكن الآن استراح قلبي وهدأت نفسي؛ فالحمد لله الذي أنقذني من هذا الخوف.

فضمها نور الدين في صمت، هو الآخر لا يستطيع أن ينكر بأن قلبه قد اطمئن واستراح بموت ذلك المختل.

مر اليوم، وفي صباح اليوم التالي، استدعى الضابط ناردين إلى القسم؛ ليغلق التحقيق، فذهبت بصحبة نور الدين وفي قسم الشرطة، استقبلهما الضابط قائلًا:

- تفضلا بالجلوس.

فجلسا ينتظران ما سوف يخبرهما به من معلومات، ثم تابع حديثه قائلًا:

- لقد أتاني تقرير الطبيب الشرعي صباح اليوم؛ فأردت أن أعلمكما بما جاء فيه.

قاطعته ناردين قائلة:

- جيد، ما الذي جاء بالتقرير يا فندم؟

فأجابها الضابط قائلًا:

- بعد المعاينة، وتشريح الجثة اتضح الأتى، اتضح بأن القتيل هو الذي هوى بنفسه من أعلى قمة الجبل، وبأنه لا توجد أي شبهة جنائية في أن أحدًا قد قام بدفعه من أعلى؛ فلقد أثبت الفحص بأن الخطوات التي كانت موجودة أعلى الجبل بداية من أول المغارة وحتى انتهائها إلى قمة الجبل؛ حيث هوى الجثمان كلها للقتيل وحده، ولا توجد أي آثار هناك لأقدام أخرى في هذا الاتجاه الذي تمت فيه الحادثة.

فاندهش نور الدين، وأيضًا ناردين ثم علق نور الدين في تعجب قائلًا:

- ماذا يعني هذا؟ هل يعني أنه قد انتحر وألقى بنفسه من أعلى الجبل؟

فأجابه الضابط قائلًا:

- هو ذاك، بالفعل، هذا هو ما حدث، فلقد ألقى جلال بنفسه من أعلى الجبل وانتحر، بعد تشريح الجثة، لم يجد الأطباء بالجثة أي آثار للتعذيب، وجد فقط آثار خفيفة على معصميه وقدميه كأنه كان مقيدًا، لكن هذا لا علاقة له بحادثة الانتحار، معنى ذلك أن جلال قد انتحر فعليًا وعليه؛ فقد قررنا إغلاق الملف على هذا، وعليك التوقيع على إفادتك يا بشمهندسة، ثم بإمكانك الانصراف، فوقعت ناردين وانصرفت بصحبة نور الدين، وهي لا تصدق بأن القدر الذي اعتقدت هي في فترة من الزمن أنه قد كتب عليها

العذاب والحرمان هو نفسه الذي قررأن ينقذها ويهديها السعادة طوال عمرها؛ فلقد اختبرها بالعذاب أولًا؛ ليكافئها بالسعادة الدائمة حتى آخر عمرها.

انصرف العروسان وهما في غاية السعادة؛ ليتابعا حفل زواجهما، وبعد مرور أسبوع آخر أتم فيه نور الدين بناء منزله الصغير الذي كان يحلم به في مزرعته وأعده؛ ليستقبل أجمل عروس سوف تزينه، أخذ ناردين لتشاهده، فلكم كان رائعًا رغم أنه صغير إلا أنه كافٍ ليساع فرحتهما، كافٍ ليشهد على سعادتهما، كافٍ ليساع قلبيهما، كافٍ ليصبح لهما الدنيا كلها بسعتها وبراحها.

مر الأسبوعان، وجاء موعد الزفاف، استعد العروسان بصحبة أهلهما وأحبائهما، وأبيهما الروحي صانع السعادة وسندهما؛ ليقيما عرسهما في مزرعتهما.

لقد حقق كلٌ منهما حلمه، ولكن لا ليعيش فيه بمفرده، وإنما ليشاركه فيه شريكًا هو أقرب إليه من روحه بخلاف ما أعتقد كليهما؛ فلقد كانت لهما حساباتهما، ولكن كان للقدر حساباته التي لا يتوقعها بشر.

أقيم العرس بحضور الأهل والأصدقاء والشيخ حامد، كانت ليلة سعيدة وجميلة، أسدلت ستارتها على ما مر من ألم وعذاب؛ لترفع في صباح اليوم التالي على مولد أروع وأجمل قصة ستبقى حتى آخر العمر. **تمت بحمد الله**